﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ٧٩﴾ [يونس: 79]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

استمرار فرعون في بثّ الأوهام

قولُ فرعونَ فيهِ تلبيسٌ وإيهامٌ على أنَّ ما جاءَ بهِ مُوسى إنّما هوَ سحرٌ، يمكنُ أنْ يعارضوهُ بسحرٍ مثلِه؛ منعًا للنّاسِ عن اتّباعِه، فعطفَ قولَ فرعونَ هذا على ما سبقَ منْ قولِه: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾؛ أي: مِنَ السّحرِ بزَعْمِهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَٰحِرٍ﴾: أصلُ (سحر) يدلُّ على خَدْعٍ وشِبْهِه[2]، وحقيقةُ السِّحْرِ صَرْفُ الشَّيءِ عن حَقيقَتِهِ إلى غَيْرِهِ، فكأنَّ السَّاحِرَ لَمَّا أرَى الباطلَ في صُورَةِ الحَقِّ، وخَيَّلَ الشّيءَ على غيرِ حَقيقَتِهِ، قَدْ سَحَرَ الشَّيءَ عَنْ وَجْهِهِ؛ أي: صَرَفَهُ[3]. تَقول العَرَبُ للرَّجُل: مَا سَحَرَكَ عَن وَجْه كَذَا وَكَذَا؟، أي: ما صَرَفَك عَنهُ؟[4]، والسِّحْرُ: الأُخْذَةُ. وكلُّ ما لَطُفَ مَأْخَذُه ودَقَّ، فَهُوَ سِحْرٌ، والجَمْعُ: أسحارٌ وسُحُورٌ، ورجلٌ ساحِرٌ مِنْ قَوْمٍ سَحَرَةٍ، والسِّحْرُ: البيانُ في فِطْنَةٍ[5]، والمقصود بـ ﴿سَٰحِرٍ﴾ في الآيةِ: مَن يَعمل السِّحْرَ، ويُزاوِلُه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الظّالمون لا يفتؤون عن مقاومة دعوة المُصلحين

يُخبرُ اللّه تعالى بأنَّ فرعونَ قد قالَ لِمَلَئِه بعد أنْ يئس من إلزام موسى بالقول: اعملوا على دفع حُجَّته بالفِعل، جِيئوني مِنَ المدائنِ بكلِّ ساحرٍ مُتقنٍ للسِّحرِ[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/173.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سحر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سحر).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (رهق).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 12/241، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/287، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/143.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ:

المقصودُ بيانُ ذِكْرِ القصّةِ لا بقيدِ ترتُّبِها

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ وإنْ كانتْ للعطفِ إلّا أنّها لا تقتضي ترتيبًا ولا تعقيبًا، لما تقرّرَ في معاني الحروفِ أنّها تفيدُ الجمعَ مطلقًا[1]؛ فهذا القولُ ليسَ مُرتّبًا على سابقِه؛ فإنّهُ واقعٌ في ابتداءِ القصّةِ، والغايةُ: بيانُ ذِكْرِ القصّةِ على وجهِ العمومِ، لا بقصدِ التّرتيبِ[2].

فرعون يحشد لمواجهة موسى بعد رَمْيِه بالسِّحر

الآيةُ معطوفةٌ على قولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يُونُس: 76] فهيَ جوابٌ ثانٍ للحرفِ (لَمّا)، فقدْ حكَى أوّلًا نفْيَ فرعونَ أنْ تكونَ دعوةُ مُوسى حقًّا من اللّه، ثمَّ حكَى رميهُ تلكَ الدّعوةَ بالسّحرِ إثباتًا على قُدْرتِهمْ على أنْ يأتوا بمثلِها؛ فإنَّ تحصيلَ مثلِ هذهِ الأسبابِ مِن وظائفِ فرعونَ، لما فيه مِنَ الأمر لخاصَّة الأُمَّة بالاستعداد لإبطال ما يُخشَى منه[3].

سِرُّ توحيدِ الفِعلِ ﴿وَقَالَ﴾:

الانفراد بالأمر سلوكٌ فرعونيٌّ وكذلك كلّ الطُّغاة

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ وَحَّدَ الفعلَ هنا بعدَ أن كانَ مُسندًا للجَمعِ في الآيةِ الّتي عطفَ عليها؛ المبدوءةِ بـ ﴿قَالُوٓاْ﴾ [يونس: 78]، وسرُّ توحيدِ الفعلِ أنّ الأمرَ من خصائصِ فرعونَ[4] لا يُشاركهُ فيه أحدٌ، وهذا شأنُ الجبابرةِ الظّالمينَ، الّذين لا يرون إلّا ذَوَاتِهم، ولا يسمعون سوى صوت أنفسِهم.

نكتةُ التّصريحِ باسمِ فرعونَ:

بيان خداعه لهم بادّعاء الألوهيّة وطاعتهم له

نُكْتَةُ التّصريحِ باسمِ ﴿فِرْعَوْنُ﴾ أنّهُ لَمّا شعرَ بخطورةِ دعوةِ مُوسى عليه السلام على مُلكه، تصدّى للأمرِ بنفسِه؛ بعدما خيَّل للنَّاس زُورًا وبهتانًا

(1) ابن يعيش، شرح المُفَصَّل: 5/7.
(2) الصّاويّ، حاشية على الجلالَيْن، ص: 818.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/253.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/169.

واستخفافًا بعقولهم السَّاذَجة أنّهُ إلهٌ، ويعني ذلك: أنَّه إذا جاءَ الأمرُ مِنَ الإلهِ فالاستجابة حتمًا ستكون على الفور بلا تَراخٍ، وهوَ ما حصلَ؛ فقدْ جيءَ بالسّحرةِ في الوقت الذي حَدَّده فرعون[1].

علّةُ نسبةِ إتيانِ السَّحرةِ إليه:

الأمرُ من وظائفِ فرعونَ، بوصفه إلهًا عندهم

وقد أُسند الفعل إلى فرعون وَحْدَه؛ لأنَّ الأمر مِن وظائفه هو دونَ الملأ من قومه، وهذا بخلاف الأفعال السَّابقة مِنَ الاستكبار ونحوه، فإنَّها مما تُسنَد إليه وإلى مَلَئِه[2].

دلالة الأمر:

ألزمهم فرعون بالفعل بعدَ اليأسِ مِن إلزامهم بالقولِ

وفي أمرِ فرعونَ لِمَلَئِه أن يأتوهُ بالسّحرةِ الحاذقينَ، دلالةٌ على إرادتهِ أنْ يُرتِّبَ أُسُسَ إلزامِ موسى وهارون ﷺ بالفعلِ، بعدَ أنَ يئسَ منْ أن يُلزمَهُما بالقولِ[3]، إذِ السِّحر - من وجهة نظرِهِ القاصرة - لا يُمكن أن يُواجَهَ بغير السِّحر، ومِنَ السَّحرة الحاذقين، لا من ضعفائهم قليلي الحيلة، ولذلك نجد السَّحرةَ أنفسَهم يُؤكِّدون في موضع آخر على ضرورة التَّكافؤ في قوَّة السِّحر: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [طه: 58].

الإلهُ الحقّ غيرُ مُفتقِرٍ إلى غيره:

الاستعانة بالسَّحَرَة عجزٌ ينقضُ ألوهيَّته المزعومة

وفي أمرِ فرعونَ لقومهِ بأن يأتوهُ بالسّحرةِ الحاذقينَ الماهرينَ، دلالةٌ تَنقضُ ادِّعاءهُ الألوهيّةَ مِن قولِه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: 38]، فإنّ أمرَهُ ذاكَ دالٌّ على احتياجهِ لهم، ولا يجوزُ أن يكونَ الإلهُ في حاجةٍ إلى غيرهِ، فإنّها صفاتُ نقْصٍ.

إيثارُ لفظِ الإتيانِ دونَ المجيءِ:

الإتيانُ المجيءُ بسهولةٍ، ويُقالُ باعتبارِ القصدِ

في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى﴾ آثرَ التّعبيرَ بفعلِ الإتيانِ

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6142.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/169، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/156.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/169.

دونَ فعلِ المجيءِ، معَ تقاربهما في المعنى؛ لأنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولةٍ، ويُقال باعتبار القَصْدِ[1]، وكلاهُما مُتحقّقانِ في أمرِ فرعونَ لملئِه وسَحرتِه؛ فلا أحدَ يعصي قولَه، وما كان لمغرورٍ مثلِه أن يقول بغير الإتيان، إذْ فيه تأكيدٌ لسطوته وقُوَّته، وإنّ قصْدَهُ بادٍ جليٌّ في معارضةِ مُوسى والغَلبةِ عليه، فضلًا عن أنّ الأمر بالإتيان قيل باعتبار القَصْد إلى أن يأتوا بهم، ولم يجيئوا بهم بعدُ، ولو تحقَّق لعبّر بفعل المجيء.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِكُلِّ سَحِرٍ عَلِيمٍ﴾:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِكُلِّ سَحِرٍ عَلِيمٍ﴾ دالّةٌ على الاستعانةِ[2]، فإنّ سَحَرَتهُ الّذين طلبهُم همُ الأداةُ الّتي استعانَ بها في مُعارضةِ مُوسى في دعوتِه إلى اللّه، واستدفاعًا لها، ظنًّا منه أنّها مِنَ السّحرِ، أو عنادًا ومكابرةً.

سحرةُ فرعونَ أداةٌ يستعينُ بها في استدفاعِ دعوةِ مُوسى جهلًا أو عنادًا

إيثارُ لفظِ (كلّ) دونَ (جميع):

آثرَ لفظَ ﴿بِكُلِّ﴾ دونَ (جميع) في قولِه تعالى: ﴿بِكُلِّ سَحِرٍ عَلِيمٍ﴾؛ طلبًا للتّعاونِ فيما بينهم، ولئلّا يفوتَه شيءٌ مِنَ السِّحرِ بتخلُّفِ البعضِ[3]، فإنّه أرادَ السّحرةَ الحاذقينَ كلَّهم، بحيث يُعضِّدُ بعضُهم بعضًا، لدلالةِ (كلّ) على الشُّمولِ والاستغراق؛ إذِ العمومُ في هذهِ الجملةِ عمومٌ عُرفيّ؛ فإنّ طَلبَهُ دالّ شاملٌ كلَّ ساحرٍ يعرفونهُ ويَظفرونَ به، أو أُريدَ به معنى التّكثيرِ[4]، ظنًّا منه أنّها تنفعُهُ في استدفاعِ ما جاءَ به مُوسى مِنَ البيِّناتِ، وتسكينٌ لقلقِ نفسه، وتطمينٌ له في مواجهته المُرتقَبة.

شمل كلَّ السَّحَرة ليتعاونوا؛ ولكي لا يفوته شيءٌ مِنَ السِّحْر

سِرُّ التّعبيرِ عنِ السّحرةِ باسمِ الفاعلِ مفردًا:

في قولِه: ﴿بِكُلِّ سَحِرٍ عَلِيمٍ﴾ عبرَّ باسمِ الفاعلِ ﴿سَحِرٍ﴾؛ لأنّهُ

قصد كلَّ السّحرة الرَّاسخين في عِلمهم، البارعين فيه

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 212.

(2) وهو من أشهر معانيها، كقولك: كتبتُ بالقلم، وعملَ النَّجار بالقَدّوم...، ونحو ذلك. ينظر: المُبرّد، المُقتَضَب: 1/39.

(3) النَّسَفيّ، التّيسير في التّفسير: 8/111، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 743.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/253.

أرادَ كلّ منْ لهُ إلمامٌ وعلمٌ بالسّحرِ، وكلّ منْ هوَ ماهرٌ بهِ، أي: كلّ منْ هوَ قادرٌ على حملِ السّلاحِ في هذهِ المعركةِ[1]، وهو سلاحُ السّحرِ؛ فإنَّ لفظ ﴿سَٰحِرٍ﴾ يعمُّ مَن كانَ لهُ إلمامٌ بالسّحرِ، ومَن هوَ بارعٌ فيه، راسخٌ في علْمه.

توجيه قراءة قوله تعالى: ﴿سَحَّارٍ﴾:

الـدّلالـةُ على المبالغةِ مناسبةً لـقَصْدِ فرعونَ إلى الانتصار

وقُرئَ قولُه: ﴿سَٰحِرٍ﴾ بصيغةِ ﴿سَحَّارٍ﴾ على وزنِ (فَعّال)، وهي قراءةُ حمزةَ والكسائيّ وخَلَفٍ[2]، وهذه الصِّيغةُ دالَّةٌ على المبالغةِ وتكرارِ الفعلِ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ، ثمّ إنّه دالٌّ على المُضيّ[3]، أي: أنّه مارَسَ السّحرَ وباشَرهُ وخَبِرهُ؛ فصارَ ضليعًا به، وهو مناسبٌ لقصدِ فرعونَ الّذي كانَ حريصًا على تهيئةِ الظّروفِ المناسبةِ للانتصارِ على مُوسى.

إيثارُ (العليم) لفظًا وصيغة:

قَـصَـدَ السّاحرَ المتـقِـنَ للسّحرِ العليم به

وفي التّعبيرِ بـ ﴿عَلِيمٍ﴾ وصفًا لـ﴿سَٰحِرٍ﴾؛ لقصد فرعون أن يكونَ المدعوُّ لمواجهة موسى ساحرًا واسعَ العلمِ، راسخًا فيه، متميّزًا بالإتقانِ للسّحرِ والعملِ فيه[4].

وفي التّعبيرِ بـ ﴿سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ أمرَ فرعونَ كانَ مُقتصرًا على كبارِ السّحَرةِ ورموزهم في مصر آنذاك، فهم أبصرُ بدقائقه، وأقدَر منْ غيرهِمْ على أنْ يُظهروا من القُدراتِ ما يفوقُ خوارقَ مُوسى – حسب تقدير فرعون ومَنِ استخفه مِن قومه – والتّعبيرُ بـ ﴿عَلِيمٍ﴾ مانعٌ من قدومِ سَحَرَةٍ لا يكونُ عملهُمْ مكافئًا لما يُظهرهُ مُوسى؛ لأنَّ فشلَهمْ ترويجٌ لدعوةِ مُوسى بينَ عامَّةِ الأمّةِ[5].

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/133.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/270.
(3) ابن خالويه، الحُجّة في القراءات السّبع، ص: 160، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/333.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/382.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/253.

في قولِه: ﴿عَلِيمِ﴾ صيغةُ مبالغةٍ زِنةُ (فَعِيل)[1]، فَوَصْفُ السّاحر بالعليمِ دالٌّ على مبالغتِه، أي: أنّهُ عليمٌ بالسّحرِ، كثيرُ العلمِ بأنواعِه وعملِه[2].

صيغةُ (فَعِيل) في قولِه (عَلِيمٍ) لإفادةِ المبالغةِ

توجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيّ:

تتشابه الآية هنا مع قولِه تعالى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ [الأعراف: 112]، وقولُه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾، ووجهُ التّشابهِ بينَ الآيتين: هو خِتام الآيتين بقولِه: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾، والفرقُ بينَ التّعبيرَيْن أنَّ القائلينَ في سورةِ الأعرافِ همُ الملأُ منْ قوم فرعونَ، أمّا في هذهِ الآيةِ؛ فالقائلُ هوَ فرعونُ نفسُه، وسرُّ ذلكَ أنّهُ أرادَ أن يأخذَ معارضةَ مُوسى على الغايةِ مِنَ الأهميّةِ والجدِّ؛ فكانَ الأمرُ صادرًا منهُ، وفيهِ إيذانٌ بالخوفِ والهَلعِ مِنْ دعوةِ مُوسى، حتَّى تصدّى لهُ بنفسِه.

تعاظُم خوفِ فرعونَ هو الدَّافع لطلب السَّحرة

التّعبيرُ بـ ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ في الموضعين:

وقولُه: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ في يونسَ مناسبةً لقولِه: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يونس: 77] قبلَه، أمّا في الأعرافِ فمناسبةً لقولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأعراف: 109][3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

عليم وخبير وحكيم:

العليمُ: القَويُّ العِلْم، وهو في أسمائه تعالى دالٌّ على أكمل العِلْم، أي: العِلْم المحيطِ بكلِّ معلوم. والخَبير: أخصُّ مِنَ العَليم؛ لأنَّه مُشتقٌّ مِن خَبِرَ الشَّيء؛ إذا أحاطَ بمعانيه ودخائله؛ ولذلك يُقال: خبرتُهُ، أي: بلوتُهُ وتطلَّعتُ بواطنَ أمرِه.

(1) سيبويه، الكتاب: 1/110.
(2) الهلال، تفسير القرآن النّريّ: 11/122.
(3) زكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن: 1/204.

والحكيمُ: وَصْفٌ مِنَ الحِكمة، وهي مُنتهى العِلْم، أو مِنَ الإحكام: وهو إتقان الصُّنع[1].
وناسَبَ طلبَ فرعونَ السَّحرةَ المُتقنين المحيطين بهذا العِلْمِ لفظُ ﴿عَلِيمٍ﴾؛ سعيًا إلى غَلَبَة موسى عليه السلام.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/197، و28/354.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 20 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-17-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 20 : المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-17-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6073958 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»